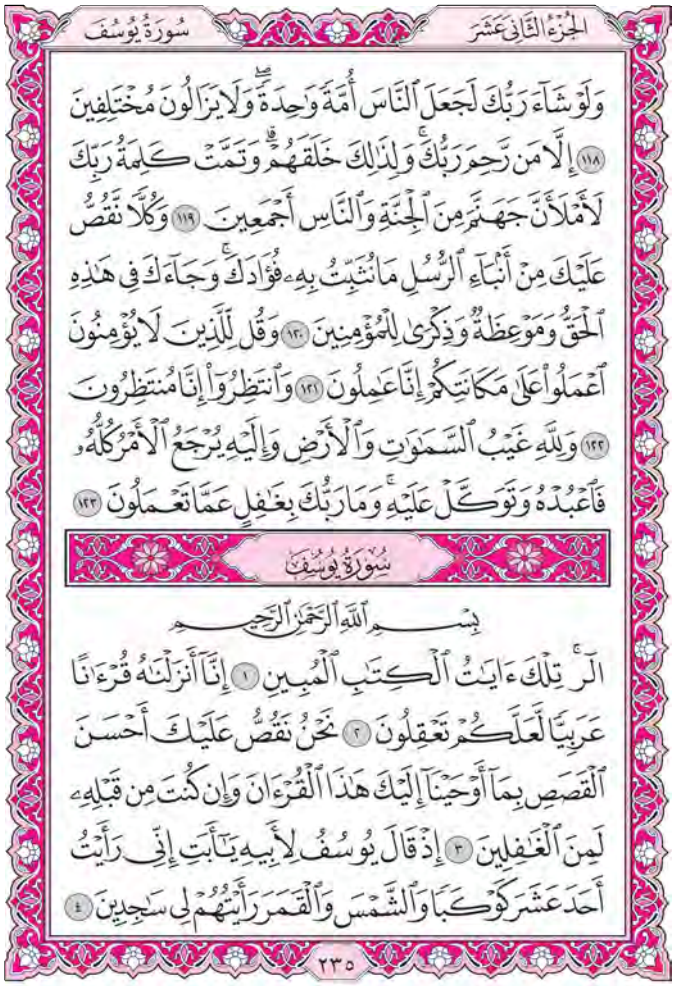

[١١٨] يخبر جل وعلا نبيه ﷺ أن في قدرته أن يجعل الناس كلهم أمة واحدة متفقين علىٰ الحق، ولكن اقتضت حكمته أن يجعلهم مختارين، ولا يزال الناس مختلفين في ذلك، فمنهم من يكون علىٰ الصراط المستقيم باتباع الأنبياء، ومنهم من يَضِل ويخالف باتباع هواه وما يزينه له الشيطان.

[١١٩] ثم استثنىٰ سبحانه الذين رحمهم الله فآمنوا به فإنهم لا يختلفون في توحيد الله وما جاءت به الرسل، وقد اقتضت حكمته جل وعلا أنه خلق الناس جميعًا لعبادته وجعلهم مختارين للهدىٰ والضلال، ثم جعل رحمته للمهتدين، وعذابه علىٰ الضالين، وبهذا تتم حكمته ويتحقق وعده ووعيده الذي قضاه وقدّره وأقسم عليه بقوله: لأملأن جهنم من عصاة الجن وعصاة الإنس الذين اتّبعوا إبليس وجنده ولم يسلكوا طريق الإيمان والهداية.

[١٢٠] يخبر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن قصص الأمم الماضية أنزلها تثبيتًا لفؤاده وأتباعه، ولكي تجعله لا يستغرب ما يلقاه من قومه، ولا شك أن الرسول ﷺ معصوم من كل الشكوك وكل ما يشين، ومراد الله جل وعلا أن يعلِّم نبيه ما لاقىٰ الأنبياء من الأذىٰ والردود السيئة التي أجيب بها الأنبياء السابقون وصبْرهم وثباتهم، وهذا مما يجعله هو وأتباعه من الدعاة والمصلحين يعرفون أن الخلق يكرهون الانتقال مما عليه آباؤهم وأسلافهم؛ مما لا يكلفهم صيامًا ولا صلاة ولا جهادًا، واعلم يانبي الله أنه قد جاءك في هذه السورة وغيرها من سور القرآن الحق الثابت الذي أنت عليه، والمواعظ الحكيمة التي يرتدع بها الكافرون، والذكرىٰ النافعة للمؤمنين.

[١٢١-١٢٢] وقل يانبي الله للذين لم يصدقوا برسالتك علىٰ سبيل التخويف والتحذير: ابقوا علىٰ حالتكم، واعملوا علىٰ شرككم والصدّ عن سبيل الله؛ فإنا باقون علىٰ حالنا من الإيمان والدعوة إلىٰ التوحيد. وانتظروا وترقبوا عاقبة الأمر، وما سيحل بنا وبكم، فإنا منتظرون ومترقبون عاقبة أمركم، وما سيحلُّ بنا وبكم.

[١٢٣] يخبر جل وعلا أن له علْم جميع ما غاب عن العباد في الكون كله، وهو سبحانه إليه مصير ومرجع ومآل أمور العباد والأعمال يوم القيامة، فاعبده يامحمد بفعل كل ما يحبه الله ويرضاه من العبادة وتبليغ الرسالة، والابتعاد عن كل ما يكرهه الله ويأباه، وفوض أمرك إليه، وما ربك بغافل عما يعمل الناس من الخير والشرّ؛ لا تخفىٰ عليه خافية، وسيجازي كلًّا بعمله.

سورة يوسف

سورة يوسف مكيّة وآياتها إحدىٰ عشرة ومائة آية. وقد ذكر جل وعلا في هذه السورة جملة من الابتلاءات المتنوعة التي أصابت نبي الله يوسف ووالده يعقوب عليهما السلام، كان أولها الحسد، ثم إلقائه في البئر، ثم بيعه بثمن بخس، ثم بعد أن صار رقيقًا وكبر أولعت سيدته بحبه حبًّا تعدّت فيه حدود الحشمة، ثم السجن، قال ابن عطاء: (لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح).

[١-٢] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة. ثم أخبر جل وعلا في أول هذه السورة أن آيات القرآن الكريم هي آيات واضحة جليةٌ لفظًا ومعنىً ومبيِّنة للعقائد والأحكام والأخلاق، وأخبر أنه أُنزل باللغة العربية التي هي أعظم اللغات وأشرفها وأقدرها علىٰ إيضاح المعاني وتبيانها؛ لعلكم تفهمون وتتدبرون ما اشتمل عليه هذا الكتاب العزيز.

[٣] واعلم يانبي الله أننا نوضح لك أحسن ما يُقص مما تعرَّض له الصالحون المستقيمون من عباد الله، بما اشتمل عليه هذا القرآن الذي أوحيناه إليك، وإن كنت من قبل إنزاله من الغافلين الذين لا يعلمون بهذه القصص التي لا يمكن معرفتها إلا عن طريق الوحي. ولا شكّ أن قصة يوسف تعتبر أحسن القصص لما احتوت عليه من العبر والثبات علىٰ المبدأ الحق، والاستقامة، وعدم الانسياق لرغبات النفس من الشهوات، والصبر علىٰ المحن، وما ترتب علىٰ ذلك من نجاح ورفعة في الدنيا والآخرة.

[٤] يخبر جل وعلا أن يوسف عليه السلام قال لأبيه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام: يا أبتِ إني رأيت في منامي أحد عشر كوكبًا، والشمس والقمر رأيتهم كلهم يسجدون لي؛ ففهم يعقوب عليه السلام أن ابنه سيكون له شأنٌ عظيم.

[٥] ثم إن يعقوب عليه السلام أوّل رؤيا ابنه يوسف تأويلًا عامًّا، وأخبره أن الله سوف يصطفيه ويعطيه النبوة كما أنعم علىٰ آبائه من قبل، أما تفاصيلها فجاءت علىٰ لسان يوسف بعد سجود أخوته له، والحاصل: أن يعقوب عليه السلام أمر ابنه يوسف أن لا يخبر أحدًا بهذه الرؤيا وخاصة أخوته حتىٰ لا يحسدوه ويعادوه؛ لأن الحسد قد يقع بين الإخوان لا سيما وهو أصغرهم سنًّا وأمه غير أمهم، ولأن الشيطان عدو للإنسان ظاهر العداوة، وبسبب هذه العداوة سوف يحثُّ إخوته ويرسم لهم خططًا للإضرار به.

[٦] وكما أراك الله جل وعلا هذه الرؤيا فسوف يصطفيك لحمل رسالته ويلهمك تأويل الأحلام، ويتم نعمته عليك وعلىٰ آل يعقوب بالنبوة والرسالة كما أنعم من قَبْل علىٰ أبويك إبراهيم وإسحاق بالنبوة والرسالة، واعلم أن ربك عليم يعلم من يستحق الاصطفاء من عباده، حكيم في تدبير شؤون خلقه.

[٧] يخبر جل وعلا أن في قصة يوسف عليه السلام مع إخوته آيات وعظات وعبر للسائلين المتطلعين الذين يريدون معرفة حقيقة تلكم القصة العظيمة.

[٨] قال إخوة يوسف بعضهم لبعض: إن أبانا يحب يوسف وشقيقه ويفضلهما علينا، ونحن جماعة، ولا نحبّ ذلك، وإن أبانا بفعله هذا لفي خطأ واضح بيّن جليّ.

وهذا يثبت أن الغيرة جِبلة خلقية ليست في النساء فقط؛ بل حتىٰ في الرجال وهي من أسلحة الشيطان.

[٩] لمّا رأىٰ أخوة يوسف أن أباهم يعقوب توسَّم في يوسف النجابة وصار يهتم به ورأوا أن وجه أبيهم منشغل عنهم، أخذتهم الغيرة؛ وخاصّة أنهم هم الذين يكدحون في طلب الرزق ويخدمون يعقوب وأسرته؛ ولذا قال بعضهم لبعض: اقتلوا يوسف أو ألقوه في أرض مجهولة بعيدة حتىٰ تتخلصوا منه، وحتىٰ يتفرغ لكم أبوكم ويُقْبِل عليكم بالحب والشفقة والحفاوة والتكريم، وبعد قتل يوسف أو إخفائه تتوبون إلىٰ الله من هذا الذنب العظيم، فَقَدَّمُوا العزم علىٰ التوبة قَبْل الوقوع بالذنب، وهذا لا يرفع عنهم الإثم فقد يحول الله بين المرء وقلبه ولا يتوفق للتوبة فيخسر خسرانًا عظيمًا، وأيضًا حسدهم لِيُوسف غير مبرر لارتكاب الجريمة، ويبقىٰ له حق ثابت حتىٰ لو تابوا.

[١٠] قال أحد إخوة يوسف: إن كنتم عازمين علىٰ إخفاء يوسف عن أبيه؛ فلا تقتلوه لبشاعة ذلك وشناعته، ولكن خذوه وألقوه في بئر عميق مظلم، فيأتي المسافرون فيأخذونه ويبتعدون به، ولا يُعرف له مكان، وهذا رأيي إن كنتم عازمين مصرّين علىٰ إخفائه وإبعاده.

[١١] ولِمَا كان من حرص يعقوب عليه السلام علىٰ يوسف؛ كان لا يتركه يفارقه، فقال له بنوه: يا أبانا: لماذا لا تأتمننا علىٰ يوسف؟ ولماذا تخاف عليه منَّا، ونحن إخوته نحب له الخير كما نحبه لأنفسنا؟.

[١٢] ثم قالوا لأبيهم: يا أبانا ابعثه معنا غدًا يتنزَّه ويتنشط ويفرح ويلعب، وسيكون تحت رعايتنا وحراستنا وحفظنا.

[١٣] فأجابهم قائلًا: إن ذهابه معكم لا يسوؤني، ولكن الذي يسوؤني ويشق عليَّ حقًّا هو أن يأتيه الخطر كأن يأكله الذئب وأنتم بعيدون عنه بطلب الصيد.

[١٤] فردوا عليه قائلين: يا أبانا: كيف يأكله الذئب ونحن معه جماعة، نحوطه ونحرسه؟! لَئِنْ حصل ذلك بأنْ أكله الذئب من بيننا؛ فنحن إذًا لا خير فينا، ولا يُرجىٰ نفعنا، ولا يُعتمد علينا بعد ذلك في شيء.

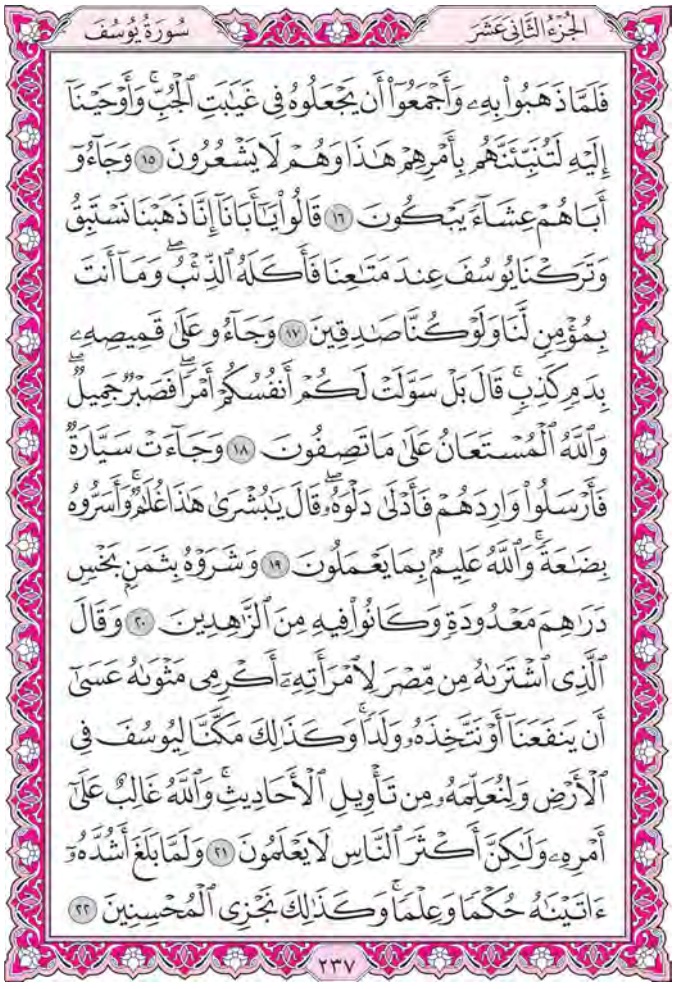

[١٥] وهكذا وقع كما تخوف يعقوب عليه السلام؛ أن ما حصل لابنه يوسف عليه السلام هو من تدبير إخوته، وليس كما ادعوا أنَّ الذئب أكله؛ حيث دبَّروا التخلص من يوسف، وتم ما خططوا له بأن ألقوه في جوف البئر؛ لكن رحمة الله بيوسف عليه السلام لإيناسه وإنزال السكينة عليه، أوحىٰ الله إليه أنه سوف ينجو، وسوف يأتي يوم فَيُذَكِّرُهُم بجريمتهم هذه، وهم لا يحسُّون بذلك الأمر بحيث يفاجئهم به.

[١٦] ثم رجع إخوة يوسف إلىٰ أبيهم بعد العشاء وهم يبكون، ويُظهرون الحزن والألم.

[١٧] ثم قالوا معتذرين: يا أبانا، إنا ذهبنا نتسابق بيننا، ولم نأخذ يوسف معنا حتىٰ لا يشق ذلك عليه، وتركناه عند متاعنا، فلمّا رجعنا إذا به قد أكله الذئب، ونحن نعرف أنك لشدَّة حبك ليوسف أنك لن تصدقنا، حتىٰ ولو كنَّا صادقين.

[١٨] ثم أخبر جل وعلا أن أخوة يوسف لطَّخوا قميصه بدم كذب ليس دم يوسف، ليشهد لهم عند أبيهم أنهم صادقون، ولكن هذا كان دليلًا علىٰ كذبهم لأن القميص لم يمزق، قال بعض المفسرين: إنهم ذبحوا سخلة ولطَّخوا القميص بدمها ولم يمزقوه؛ فقال يعقوب: لَمْ أر في حياتي ذئبًا لطيفًا مثل هذا الذئب جرَّده من ثيابه ثم أكله، ثم قال لهم: بل حسَّنت وزيَّنت لكم أنفسكم أمرًا سيئًا فليس لي إلا أن أصبر صبراً جميلًا لا شكوىٰ فيه لأحد سوىٰ الله، فإنه هو المعين وحده علىٰ ما قمتم به من الكذب وفعل السوء.

قال بعض المفسرين: لقد فعل أخوة يوسف فعلتهم قبل أن يصيروا أنبياء، وأكثر المفسرين قالوا: لم يكونوا أنبياء لا قبل هذه الجريمة ولا بعدها؛ لأن المعروف عن الله سبحانه أنه يحفظ أنبياءه، ولكن قتْل موسىٰ للقبطي ينفي هذا القول.

[١٩] ومن رحمة الله بيوسف عليه السلام أن أُناسًا مسافرين مروا علىٰ البئر التي أُلْقِيَ فيها يوسف فجلسوا قريبًا من البئر، ثم أرسلوا واردهم ليجلب لهم الماء من البئر؛ فلمّا أنزل الرجل الدلو في البئر ليملأه؛ تعلق به يوسف؛ فلما أخرج الدلو من البئر وجد يوسف متعلقًا به؛ ففرح وابتهج وصاح قائلًا: يا بشرىٰ هذا غلام، واعتبروه صيدًا ثمينًا، وأخفوا خبر التقاطه من البئر، واعتبروه بضاعة وأسرُّوا بيعه، ثم أخبر سبحانه أنه عليم بما عمله أخوة يوسف بأخيهم، وعليم بالذين باعوه والذين اشتروه، لا يخفىٰ عليه من ذلك شيء.

[٢٠] ثم باع أهل القافلة يوسف عليه السلام بيعة بخسة بدريهمات معدودة، وكانوا زاهدين فيه لأنهم لم يملكوه بحق ولم يدفعوا ثمنًا لشرائه.

[٢١] ومن رحمة الله بيوسف أيضًا أن الذي اشتراه هو عزيز مصر، أي: وزير التموين؛ حيث توسم فيه الخير ووصّىٰ أهله بالعناية به؛ لعله أن ينفعهما فيخدمهما ويقوم مقام الولد منهما، وكما أنجىٰ الله يوسف عليه السلام وجعل عزيز مصر يكرمه ويعطف عليه؛ فكذلك مكّنَ الله ليوسف في قلوب من يراه مثل عزيز مصر وزوجته وخدمه وغيرهم؛ حيث كان له حَظْوة وعناية ليس كالأرقاء الممتهنين، وهذا التمكين هو في القلوب ونفوس المحيطين به من سادة وخدم بإلقاء محبته في نفوسهم، وهو غير التمكين الذي حصل عليه يوسف عندما عبَّر رؤيا الملك ثم قابله بعد أن أثبت براءته من: ﴿ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾؛ فقال له الملك: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، ثم قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ [يوسف:٥٦]؛ فهذا الأخير تمكين سيادة وسلطة وحرية يتنقل ويسكن حيث يشاء، ثم أخبر سبحانه أنه علَّم يوسف تفسير الأحلام، وأخبر سبحانه أنه غالبٌ علىٰ أمره، لا يغلبه غالب، ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعلمون قضاء الله وحكمته، وأن الأمر كلّه بيد الله الواحد الأحد.

وقد قيل: إن اسم امرأة عزيز مصر: راعيل، وقال ابن عباس: لقبها (زليخا)، وقيل أيضًا: أفرس الناس عزيز مصر، وابنة شعيب التي قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦].

[٢٢] ولمّا اكتمل يوسف جسمًا وجمالًا وعقلًا، أعطاه الله الحكمة والبصيرة والفهم لتأويل الأحلام، ومثل هذا الجزاء الذي أعطيناه لعبدنا المحسن يوسف كذلك نجزي كل محسن علىٰ إحسانه، فإن خزائن الله لا تنفذ، فهو أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين.

وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ
وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ
إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا
لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ
وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا
ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ
قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ
أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ
مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ
هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ
﴿٢٩﴾ * وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا
عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾

[٢٣] ثم أخبر جل وعلا أن امرأة العزيز عندما بهرها جمال يوسف لم تملك أعصابها وغلبتها الشهوة فأرادت أن يجامعها، وبذلت في ذلك كل ما تستطيع من الجهد وتكرار الطلب؛ لذلك دعته لنفسها في بيتها وغلقت الأبواب عليها وعلىٰ يوسف، وقالت له: هلم إليَّ، وفي قراءة: (هِئْتُ لك)، أي: تهيأت لك، ولكن عصم الله يوسف وهرب، وقال: معاذ الله إنه -أي: عزيز مصر- ربي، أي: سيدي الذي اشتراني وأكرم مقامي؛ فهو يذكرها بفضل زوجها عليه، وأنه لا يستحق أن يخونه، وقد قدم يوسف خوف الله أولًا فقال: معاذ الله، أي: إنني أستجير بالله من الذي تدعينني إليه؛ وأخبرها أنه لا يفلح ولا ينجح من ظلم وفعل هذا الفعل.

[٢٤] ثم أخبر سبحانه أن امرأة العزيز مالت نفسها لفعل الفاحشة مع يوسف عليه السلام وعزمت عزمًا جازمًا علىٰ ذلك، وكذلك حدثت يوسف نفسه حديث خطرات للاستجابة لها، ولولا أن رأىٰ آية من آيات ربه تزجره عما حدثته به نفسه لكاد أن يقع معها في ما حرم الله، وإنما أراه الله ذلك رحمة منه ليدفع عنه السوء والفاحشة، وقد قال بعض المفسرين: إن الله أراه صورة أبيه، ثم بين جل في علاه أن يوسف عليه السلام من عباد الله المطهرين الذين اصطفاهم للرسالة، والذين أخلصوا في عبادته وتوحيده وطاعته، وعصمهم الله من كل ما يغضبه جل علا.

قال الشيخ الشنقيطي في تفسير أضواء البيان: لم يهم يوسف بها أصلًا؛ لأنك لو قلت: سقط فلان في البئر لولا أحمد؛ فإنه لم يقع في البئر. وقال الشيخ ابن باز: إنه هم بها، وقال بمثل قوله كثير من العلماء.

قلت: وربما قالوا ذلك تأدبًا مع لفظ القرآن الكريم (همّت وهمّ)، وفضيلته يعلم أن لولا حرف امتناع لوجود.

[٢٥] ثم بين سبحانه أن يوسف عليه السلام أسرع هربًا منها ومن طلبها، وأسرعت هي لتلحق به، فأدركته قبل أن يخرج من الباب فأمسكت بقميصه من الخلف فشقّته، وعندها وجدا العزيز عند الباب، فبادرته امرأته قائلة: ما مصير وعقاب من أراد بأهلك فعل الفاحشة؟، إنَّ جزاءه أن يدخل السجن، أو يعذب عذابًا شديدًا موجعًا.

[٢٦] فقال يوسف مدافعًا عن نفسه: إن سيدتي هي التي طلبت منّي ما رمتْني به، ثم يسَّر الله شاهدًا فحكم وفصل بينهما بقرينة من يمتلكها يكون هو الصادق، فقال هذا الشاهد: انظروا إلىٰ مكان شق قميص يوسف، فإن كان الشَّقُّ من الأمام فهذا دليل علىٰ أنه هاجمها، وهي دافعت عن نفسها حتىٰ شقت قميصه، وحينها تكون صادقةً في ادعائها ويكون هو من الكاذبين.

[٢٧] ثم قال الشاهد: وإن كان العكس بأنْ كان شقُّ القميص من الخلف فهذا دليل علىٰ هربه منها، وإمساكها به من الخلف، وحينها يكون هو صادقًا، وتكون هي من الكاذبين.

[٢٨] فلما رأوا أن القميصَ مشقوقٌ من الخلف؛ عَلِمَ أنه هو الصادق، فقال لامرأته: إنَّ ما فعلتِ إنَّما هو من مكركنَّ أيتها النساء، وإن مكركنَّ عظيم، وحِيَلَكُنَّ كبيرة.

وقد أمر الله بغض البصر عن المرأة الأجنبية؛ لأنه الوسيلة الأولىٰ للتعلق والحب، لذا فليحذر المؤمن من النظر للنساء الأجنبيات عنه، ولا يغتر بثقته في نفسه؛ فإن النظر هي مقدمة الخطيئة، والقلب قُلَّبٌ، وربَّ نظرة صرعت صاحبها.

[٢٩] ثم طلب عزيز مصر من يوسف أن يصرف النظر عن الموضوع، وأن لا يخبر به أحدًا، وطلب من زليخا أن تستغفر الله وتتوب من خطئها الذي وقعت به، وقال لها: إنك كنت من الآثمين في طلبك من يوسف فعل الفاحشة معه، ومن الآثمين في افترائك عليه. وقد استغرب بعض المفسرين من عدم غيرته، وقال بعضهم: إنه عاقب زوجته وأقسم أن لا ينام معها أربعين ليلة، وأنه حرمها من رؤية يوسف وأخذه معه في مقر عمله لمساعدته في تصريف أمور الدولة، وقالوا: إنَّ ذلك أهَّلَ يوسف ليقول للملك عندما فسَّر له الرؤيا فقال: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، فقال يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٥٥]، أي: خزائن الدولة، وهذا تواضع منه لأن قول الملك له: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، أي: إنك اليوم أصبحت رئيسًا للوزراء.

[٣٠] ثم بين سبحانه أن خبر يوسف عليه السلام وامرأة العزيز شاع وانتشر في البلاد، وتكلمت بعض النسوة عن ذلك، واستنكرْن فعل امرأة العزيز؛ وقلْن في استغراب: امرأة عزيز مصر في مكانتها تراود فتاها وخادمها عن نفسه؟! إنَّا لنراها بفعلها هذا في خطأ واضح، وضلال جليٍّ بيِّن.

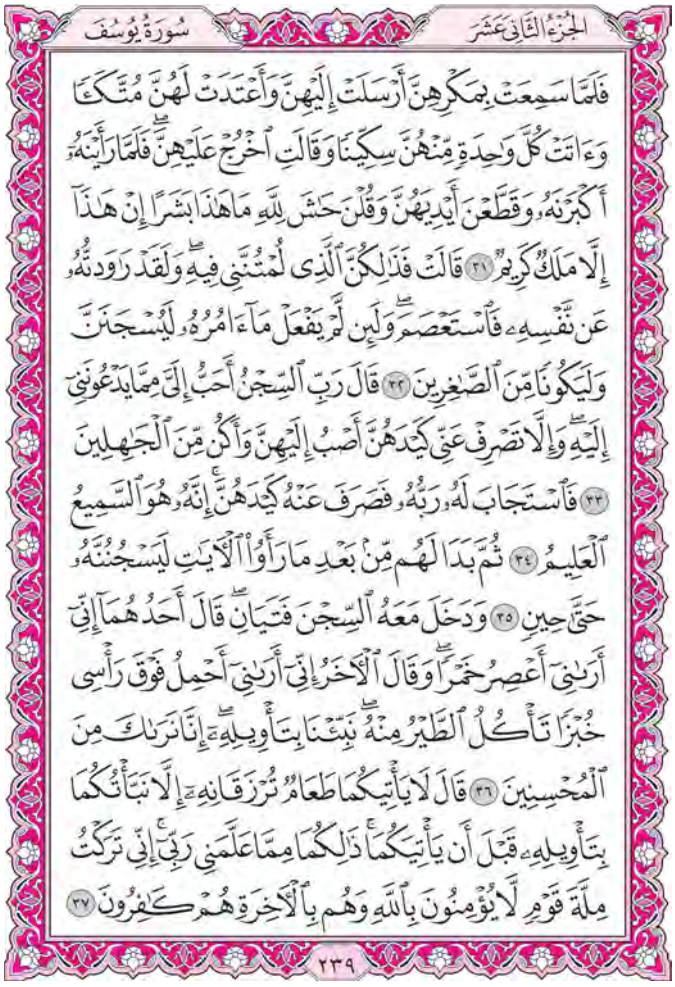

[٣١] وصل خبر النسوة وما تكلمن فيه إلىٰ امرأة العزيز، فلما علمت بذلك؛ بعثت إليهن، وهيأت لهنّ مكانًا يجلسن فيه متكئاتٍ، وقدمت لهنَّ فاكهة، وأعطت كلّ واحدة من النسوة سكِّينا يستخدمْنها في الأكل وتقطيع الفاكهة، ثم أمرت يوسف عليه السلام أن يخرج عليهنّ، فخرج فلمَّا رأته النسوة بُهِرْن ودُهِشْن لجماله ولحسن طلعته، وذَهِلن عن السكاكين اللاتي بأيديهن فجرحن بها أيديهنّ، ثم قلْن في دهشة واستعظام: معاذ الله أن يكون هذا الفتىٰ بهذا الجمال من البشر، ما هذا إلا مَلَكٌ كريم من الملائكة.

[٣٢] حينها قالت لهنَّ امرأة العزيز: هذا هو الفتىٰ الذي لمتنني في مراودته، ولقد راودته عن نفسه فامتنع وأخذ بالعصمة ولم يستجب، ولئن لم يفعل ما طلبته منه مستقبلًا ليكونن مصيره السجن، وليكوننَّ من الأذلاء الصاغرين.

[٣٣] حينها التجأ يوسف عليه السلام لربه خاضعًا متذللًا قائلًا: يارب إن السجن أهون عليّ مما يدعونني إليه، يارب إن لم تعنِّي وتلطف بي وتصرف عني كيد هؤلاء النسوة أخشىٰ أن أضعف فأميل إليهنّ، وأفعل فعل الجاهلين.

[٣٤] فاستجاب الله جل وعلا لعبده يوسف حين دعاه، واعتصم به، فصرف عنه كيد ومكر هؤلاء النسوة، إنه سبحانه هو السميع الذي يسمع دعوة المضطر، العليم الذي يعلم صدق من يلتجيء إليه في الشدائد فينجّيه.

[٣٥] ثم ظهر وبدا للعزيز ومن معه -بعدما علموا براءة يوسف- أن يسجنوه إلىٰ أجل غير مسمىً حتىٰ ينقطع كلام الناس، وتنمحي آثار تلك الفضيحة، وحتىٰ يوهموا أن امرأة العزيز بريئة.

ومن رحمة الله به أنه بهذا السجن صار داعية لتوحيد الله وعُرف إحسانه وصلاحه كما قال له زملاؤه في السجن: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦]، ثم أن ذلك أعطاه فرصة ليؤوِّل رؤيا الملك التي بعدها تولىٰ وزارة حكومة مصر بعد أن استخلصه الملك لنفسه كما قال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ [يوسف:٥٤].

[٣٦] ولمّا دخل يوسف عليه السلام السجن؛ دخل معه فتيان، فرأىٰ كل منهما رؤيا منامية، فقصَّاها علىٰ يوسف عليه السلام، فقال الأول: إني رأيت في منامي أنِّي أعصر خمرًا، وقال الآخر: وأنا رأيت أنِّي أحمل فوق رأسي خبزًا تأكل الطير منه، فأخبرنا يايوسف بتعبير هذه الرؤىٰ، فإنا -بمعاملتك إيانا ومعاشرتنا لك- عرفنا أنك من أهل الإحسان والعلم.

[٣٧] فأجابهما يوسف قائلًا: لا يأتيكما طعام في هذا السجن إلا أخبرتكما بنوعه وماهيته قبل أن يأتيكما، وهذا مع ما سأعبره لكما؛ مما علمنيه ربي وفتح به عليَّ، ثم استغلَّ يوسف عليه السلام فرصة إصغائهما واستماعهما إليه في دعوتهما إلىٰ التوحيد، فقال لهما: إني ابتعدت عن دين قوم لا يصدقون بالله ولا باليوم الآخر، وهم بالبعث والنشور والحساب والجزاء جاحدون.

ثم استمر في دعوتهما إلىٰ التوحيد فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩]، كما سيأتي.

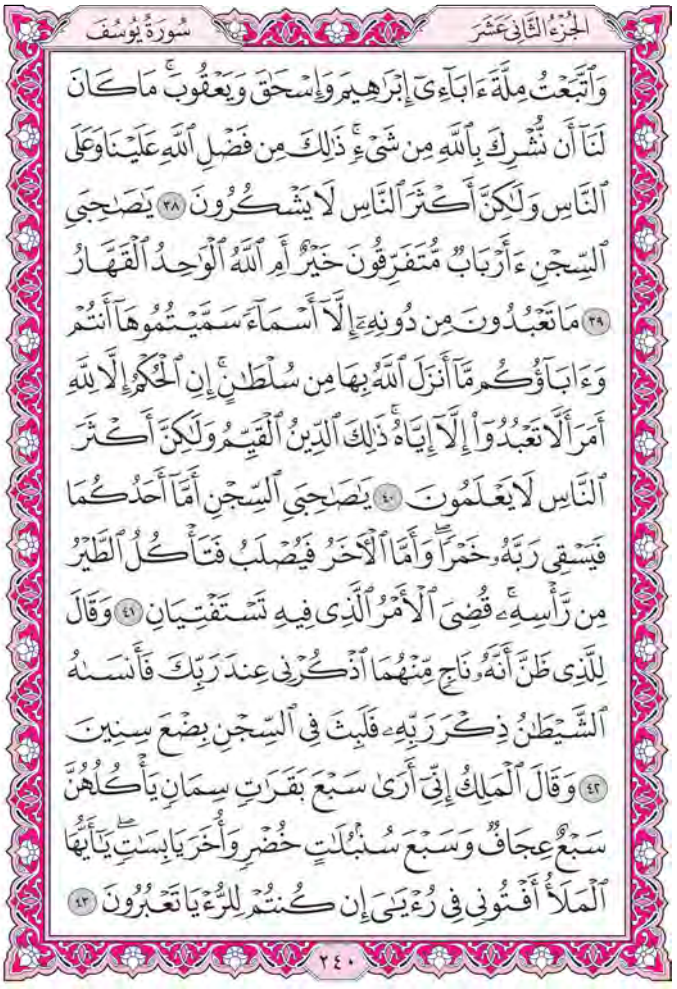

[٣٨] ثم قال يوسف عليه السلام متكلمًا عن نفسه: ولقد استقمت على الدين الصحيح الذي سبقني إليه آبائي من قبلي: إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وهو عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، وما يليق بنا ولا يحقُّ لنا أن نشرك مع الله أحدًا من مخلوقاته، لا ملَكًا مقرَّبًا ولا نبيًّا مرسلًا، وهذا التوحيد هو أفضل نعمة -على الإطلاق- منَّ الله بها علينا وعلى كلِّ موحِّد، ولكنَّ أكثر النَّاس لا يشكرون الله حق شكره على هذه النعمة العظيمة.

[٣٩] ثم واصل يوسف عليه السلام دعوتهما إلى التوحيد بلطف ولين قائلًا: يا صاحبي السجن: أعبادة آلهة متفرقة مختلفة عاجزة مخلوقة خير، أم عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد! الذي قهر كل شيء وغلب وعلا وارتفع على كلّ شيء عزة وملكًا وقهرًا؟!

[٤٠] ما تعبدون من دون الله إلَّا آلهة باطلة أطلقتم عليها اسم الآلهة، وهي ليست كذلك، هذه مسميات أطلقتموها أنتم وآباؤكم، ليس معكم عليها دليل منزَّلٌ من عند الله؛ بل الدليل على عكس ذلك، واعلموا أن الحكم لله وحده لا شريك له، ولا ربَّ سواه، وهو الذي أمركم بعبادته وحده وترك عبادة ما سواه، ذلك التوحيد هو الدين المستقيم الثابت، والملّة الصحيحة القويمة، ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعلمون ذلك.

[٤١] ثم بدأ يوسف عليه السلام بتعبير الرؤى لصاحبيه، فقال لهما: أما الأول الذي رأى أنه يعصر الخمر؛ فإنه سيخرج من السجن ويكون ساقي الخمر للملك، وأما الآخر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه؛ فإنه سيقتل ثم يُصلب ثم تأكل الطير من رأسه، ثم قال لهما: هذا جواب ما سألتُماني عنه، وهذا أمر قد قضاه الله وقدَّره كما شاء.

[٤٢] ثم قال يوسف عليه السلام للذي ظنَّ أنه سينجو منهما: اذكرني عند الملك، وذكِّرْه بأني سُجنت ظلمًا، فنسي الرجل أن يُذكِّر سيده؛ فمكث يوسف عليه السلام في السجن بضع سنين، والبضع من الثلاث إلى التسع، وذلك لِحِكَم يعلمها الله، منها: أن يموت عزيز مصر فيحل محله يوسف عليه السلام، ومنها: أن يؤوِّل رؤيا الملك.

قال بعض المفسرين: إن الذي نسي ذكر ربه هو يوسف عليه السلام، قالوا: إن الضمير في قوله: (فأنساه الشيطان ذكر ربه) عائد على يوسف عليه السلام، وهذا القول ضعيف، والصواب: أن الذي أنساه الشيطان ذكر ربِّه في الآية هو الرجل الذي طلب منه يوسف عليه السلام أن يذكره عند الملك، وليس هو يوسف عليه السلام؛ لأن يوسف عليه السلام لم ينس ذكر ربِّه، وليس في قول يوسف عليه السلام له: (اذكرني عند ربك) شيء مما يخلُّ بمنصب الرسالة، أو التوكل على الله وإنزال الحوائج به، وقد رجح ذلك الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى.

[٤٣] ثم رأى الملك في منامه رؤيا كانت بداية الفرج ليوسف عليه السلام، فقال: إنّي رأيت في منامي سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات هزيلات، قد سقطت قوتهن، ورأيت سبع سنبلات خضر، وسبعًا أيضًا يابسات، ثم وجّه نداءً للوجهاء والأشراف في قومه قائلًا: عبِّروا لي هذه الرؤيا، إن كنتم تستطيعون ذلك.

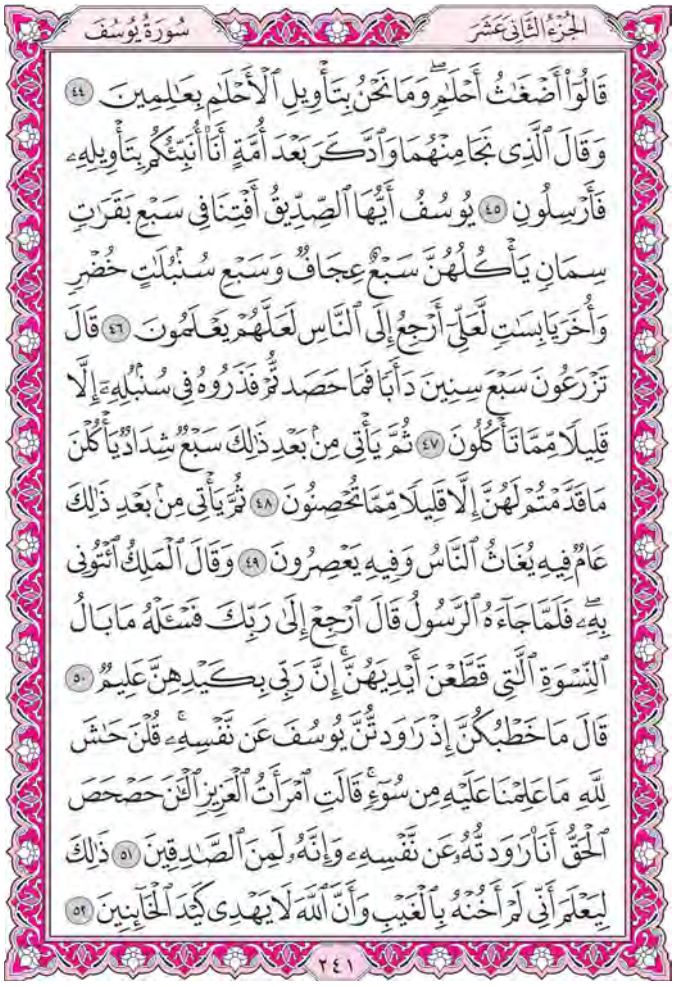

[٤٤] فأجابوه قائلين: هذه ليست رؤيا، هذه أضغاث أحلام، ثم تراجعوا واعترفوا بعجزهم وقالوا: لا علم لنا بتعبير الرؤىٰ.

[٤٥] وقال أحد الرجلين اللذين كانا مع يوسف في السجن ثم نجا من القتل وصار ساقيًا للملك؛ حيث تذكّر بعد فترة طويلة ما طلبه منه يوسف، وتذكر كيف كان يوسف يفسر الأحلام تفسيرًا صادقًا، فقال الساقي: أنا أستطيع أن آتيكم بتفسير هذه الرؤيا التي خفي تفسيرها علىٰ الملك؛ فأمرني أن أذهب إلىٰ من يفسرها لي تفسيرًا واضحًا بينًا.

[٤٦] فجاء الذي نجا إلىٰ يوسف عليه السلام واصفًا إيّاه بالصدق قائلًا: أخبرنا يا يوسف بتعبير هذه الرؤيا: سبعُ بقراتٍ سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات، فسِّرْ لي هذه الرؤيا حتىٰ أرجع إلىٰ الملك وإلىٰ الناس بتفسيرك فيعرفون تأويل الرؤيا، ويعرفون فضلك وعلمك ومكانتك؛ حيث إن الجميع قد عجز عن تفسيرها.

[٤٧] فأجابه يوسف عليه السلام معبِّرًا للرؤيا: إنكم تزرعون سبع سنين متتالية متتابعة، وإذا حصدتم زرعكم فاتركوه مدَّخرين له في سنابله، إلا القليل الذي تأكلون منه.

[٤٨] ثم أكمل يوسف عليه السلام تفسير الرؤيا فقال: ثم يأتي بعد ذلك سبع سنين جداب شداد لا خصب فيهن ولا زراعة؛ فيأكل الناس ما ادّخرتم من قبل، ولا يبقىٰ إلا شيء قليل مما حبستموه من الحبِّ ولم تقدموه للنَّاس.

[٤٩] واستمر يوسف عليه السلام في تفسير الرؤيا فقال: ثم يأتي بعد ذلك عام خصب كثير الأمطار والسيول، فيحلّ الفرج والسعة علىٰ النَّاس، حتىٰ أنهم ليعصرون الثمار من كثرتها وزيادتها.

[٥٠] وبعد أن سمع الملك تفسير الرؤيا طلب من حاشيته أن يأتوا بالرجل الذي فسّر الرؤيا؛ فلمّا جاءوا إلىٰ يوسف في السجن وطلبوا منه الحضور للملك، قال لهم يوسف: ارجعوا إلىٰ سيدكم الملك، واسألوه قبل خروجي من السجن: لماذا سجنت، وما حقيقة التهمة؟ أي: أنه طلب إعادة التحقيق، وأراد يوسف بذلك إظهار براءته وكشف الحقيقة للنّاس، وأراد أيضًا أن يُثْبِتَ للملك براءته ممّا رمته به امرأة العزيز، إن الله جل وعلا وحده العليم بمكرهنَّ وأفعالهن لا يخفىٰ عليه شيء من ذلك، وهو الذي سوف يتولىٰ حسابهنَّ.

[٥١] ثم جمع الملك النسوة وقال لهنَّ: ما شأنكنَّ لمّا راودتنّ يوسف عن نفسه؟ قلن: معاذ الله، ما عرفنا عنه إلا الطهر والعفاف، ومعاذ الله أن يكون قد استجاب أو ظهر منه ما يدل علىٰ ذلك، ثم نطقت امرأة العزيز بعد أن هدأ غليان الشهوة عندها، قائلة: الآن تمحصّ الحقّ وظهر وبان بلا دخن ولا خفاء ولا تلبيس، أنا التي راودته عن نفسه، وطلبت منه ذلك، وقد امتنع وأبىٰ، وإنه في تبرئته لنفسه لمن الصادقين، وربما كلامها موجه ليوسف اعتذارًا عن التهمة السابقة، وأنها لم تستمر عليها في غيبته.

[٥٢] ثم قالت امرأة العزيز: وهذا الاعتراف والإقرار مني بذلك ليعلم يوسف أني لم أخنه وهو غائب عني، أي: لم استمر علىٰ اتهامه حال غيبته، وغاية ما حصل مني هي المراودة، فتبين من هذا أنها هي المتحدثة وهي المبرِّأة ليوسف عليه السلام، ولم تتحدث عن زوجها ولا هو تحدث عنه، واعلموا أيها الناس أن الله لا يهدي ولا يسدِّد كيد الخائنين؛ بل إن كيدهم في خسارة وبوار وضلال.

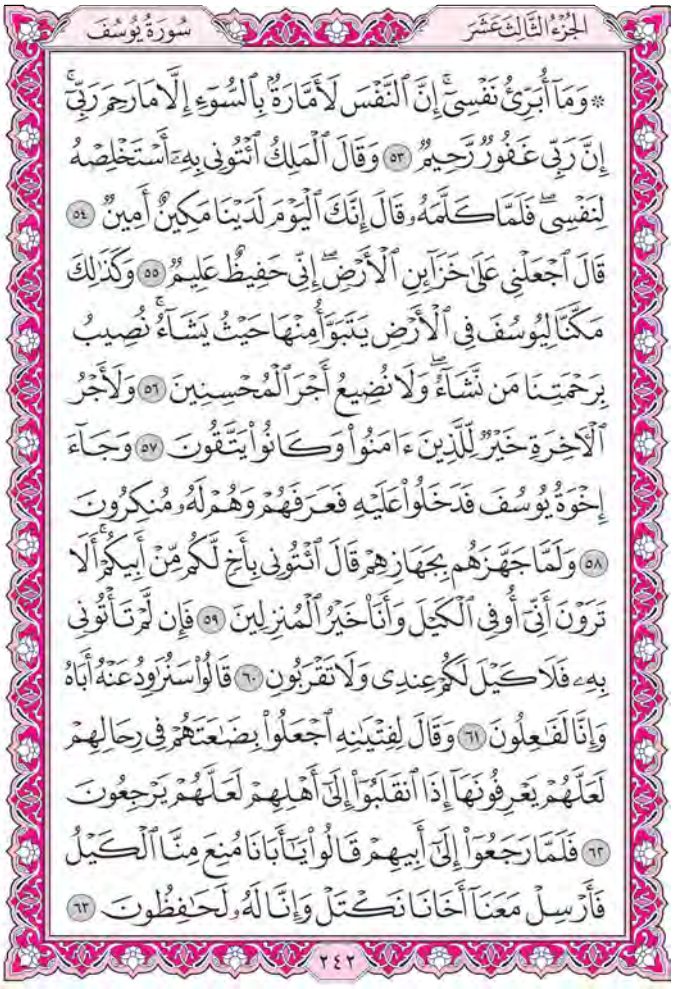

وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ
إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ
لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾
قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ
مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ
بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ
الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَاءَ
إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ
﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا
تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي
بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ
وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ
لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ
فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾

[٥٣] ثم قالت امرأة العزيز: ومع أني لا أُزكِّي نفسي، ولا أبرِّؤها من حصول المراودة، والهم، والسعي في ذلك، فإن النفس كثيرة الأمر لصاحبها بالسوء إلا من يرحمه الله فينجّيه بتوفيقه من نفسه الأمارة بالسوء، إن الله غفور يغفر لمن استغفره وتاب إليه، رحيم يرحم من رجع وأناب إليه.

[٥٤] ولما تيقن الملك من براءة يوسف، وظهر له علمه ورجاحة عقله؛ أرسل في طلبه، وعزم أن يجعله في الوظيفة اللائقة بعلمه وقدرته، ويستعين به علىٰ تدبير أمور مملكته، فجاء يوسف عليه السلام معزّزًا مكرَّمًا، فلما كلمه الملك أُعجب به أيّما إعجاب فقال له: يا يوسف إنك اليوم عندنا متمكِّن في مملكتنا، وأمينٌ نأتمنك علىٰ أسرارها، أي: جعله رئيس الحكومة.

[٥٥] ولكن يوسف عليه السلام تواضع وقال للملك: اجعلني أيها الملك مسئولًا علىٰ خزائن مصر، أي: وزيرًا للتموين؛ فإني حفيظ أمين لها، ولا شك أن قوله: ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾: هما أهم الشروط المطلوبة لوزير التموين.

وللمفسرين في طلب يوسف للعمل أقوال: منها: أنه يجوز طلب العمل إذا كان الشخص يريد أن يخدم الأمة وينقذها من مجاعة كما فعل يوسف، أو يجيد عملًا ويريد أن ينفع أمته.

وقال الشيخ الكبيسي: إن الملك جعله رئيسًا للحكومة لأن الله قال عن جبريل: مكين أمين فهو أعلىٰ الملائكة وهو الأمين علىٰ حمل رسالاته.

ثم قال: فإن يوسف تواضعًا منه طلب فقط وزارة التموين لعلمه وخبرته التي استفادها لمّا كان عند عزيز مصر.

[٥٦] وهكذا مكَّن الله جل وعلا ليوسف في الأرض يتنقَّل فيها حيث شاء، وينزل منها حيث أراد، -بعد أن كان في رقٍّ وضيق وسجن وشدّة-، وهذا من رحمة الله به في الدنيا، مع ما ينتظره في الآخرة من مجازاته بأحسن ما كان يعمل، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

[٥٧] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أن أجر وثواب الآخرة خير وأعظم من أجر الدنيا، وهذا يناله الذين آمنوا بالله وصدقوا برسالاته، واتبعوا أنبياءه، وكانوا يتّقون الله فيجعلون بينهم وبين عذابه وقايةً وحاجزًا بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

[٥٨] وبعد أن تولىٰ يوسف عليه السلام هذه المكانة؛ جاء إخوته يطلبون شراء الغذاء من مصر، أي: التزود من الأطعمة لأهلهم كغيرهم من الناس الذين يأتون مصر للتزود من الأطعمة لأسرهم؛ حيث حلَّ الجدب والقحط بأرض الشام وسيناء ومصر، وأكثر البلاد؛ فدخلوا عليه، فعرفهم مباشرة وهم لم يعرفوه ولم يخطر ببالهم أنه يوسف، لطول الفراق، وتغير الهيئة والحال، ولأنه فارقهم وهم رجال وهو كان صغيرًا.

[٥٩] فلمّا كَالَ لهم يوسف عليه السلام، وأعطاهم ما طلبوا من الميرة، وزوّدهم بما يحتاجه المسافر؛ -وكان قد سألهم عن حالهم فأخبروه، وذكروا له أن لهم أخًا عند أبيهم، وهو شقيقه- قال لهم: في المرة القادمة لا بدّ أن تأتوني بهذا الأخ، ألا ترون إحساني لكم وتوْفيتي لكيْلِكم!، ألا ترون إكرامي لكم، وحسن ضيافتي إياكم؟!

[٦٠] واعلموا أنكم - في المرة القادمة - إن لم تأتوا معكم بأخيكم هذا، فلن أكيل لكم، ولن أعطيكم الميرة؛ بل لا تُقْبِلوا عليَّ أصلًا.

[٦١] فأجابوه قائلين: سنحاول مع أبيه أن يسمح لنا بالإتيان به معنا في المرة القادمة، وسنبذل جهدنا في ذلك.

[٦٢] قال يوسف لخدمه وغلمانه: اجعلوا بضاعتهم التي دفعوها لشراء الميرة في داخل رحالهم، وأخفوها فيها، -إحسانًا إليهم- ولعلهم إذا رجعوا إلىٰ أهليهم وفتحوا متاعهم يجدون ذلك، فيحثهم علىٰ العودة مرة أخرىٰ، ومعهم الأخ الشقيق.

[٦٣] ثم رجع إخوة يوسف إلىٰ أبيهم، وأخبروه برحلتهم، وإكرام العزيز إيَّاهم، وأخبروه أنهم ممنوعون من أخذ الكيل والميرة مستقبلًا إلا أن يصحبهم أخوهم -الذي أخبروا به يوسف-، فلا بدّ أن يصحبنا في الرحلة القادمة، ثم قالوا له: نحن سنتعهَّد بحفظه والمحافظة عليه، وردِّه لك سالمًا.

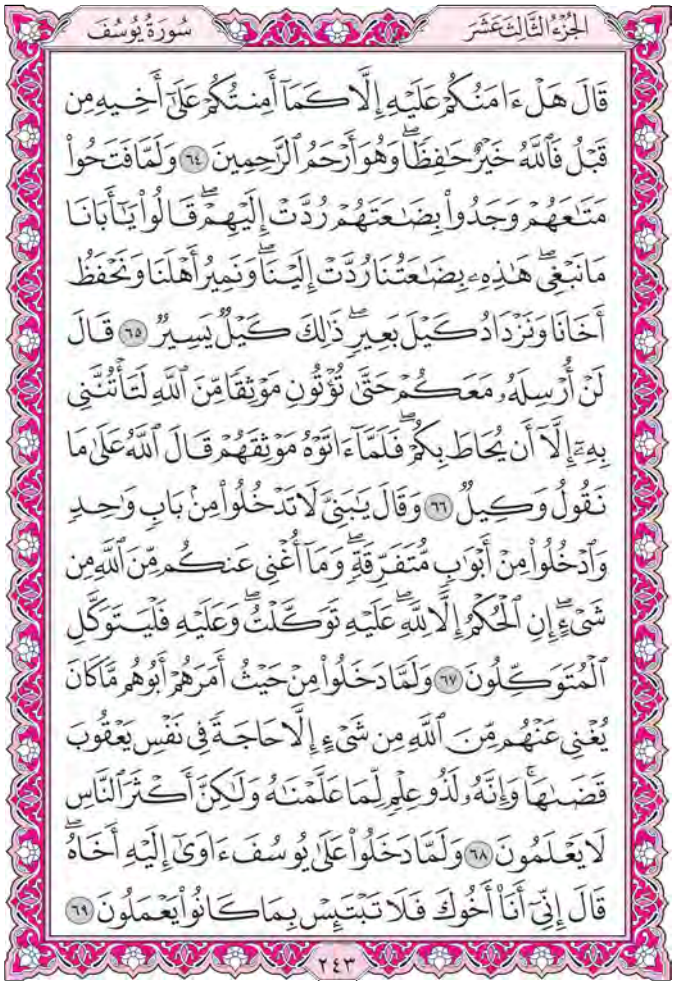

[٦٤] هنا تذكّر يعقوب عليه السلام ما حصل منهم مع يوسف، فقال لهم: لقد التزمتم من قبل أن تحفظوا يوسف، وتعهدتم بذلك، ولم توفوا، فلم أعد أثق في تعهداتكم، وإني ملتجئٌ إلىٰ الله في حفظ ما أريد حفظه، فهو خير حافظًا، وهو سبحانه وتعالىٰ عليم بحالي وما أصابني من الكرب لفقدان يوسف، وهو أرحم الراحمين، وأنا أدعوه أن يرحم حالي فيحفظ لي ولدي هذا، ويرد علي يوسف.

[٦٥] ولمّا فتح إخوة يوسف متاعهم بعد أن وضعوا رحالهم؛ فوجئوا أن الملك قد ردّ لهم الثمن الذي دفعوه مقابل الكَيْل والميرة، فكان دافعًا لهم في ترغيب أبيهم أن يرسل معهم أخوهم، فقالوا: ياأبانا ما نريد أذىً لأخينا، ولا نريد أكثر من ذلك إحسانًا لنا؛ فقد ردّ الملك لنا ثمن كَيْلِنَا وميرتنا، فما أيسر أن ترسل معنا أخانا نأتي بالطعام والميرة التي نحتاجها، ونتعهد بحفظ أخينا وردِّه سالمًا، وأيضًا نزداد كيل بعير، وقد كان الملك لا يعطي الرجل أكثر من كيل بعير لشدة تلك السنوات والجدب فيها، فهذا أمر سهل، ومصلحة ميسورة، لا ينبغي أن نفوتها.

[٦٦] فأجابهم يعقوب عليه السلام قائلًا: لن أرسله معكم حتىٰ تعطوني ما أثق به وأركن إليه؛ من الحلف بالله أيمانًا مغلّظة أن تتعهّدوا بحفظه، وتُرجِعوه إليَّ، وتبذلوا في ذلك كل ما تستطيعون، إلا أن يحصل شيء خارج عن إرادتكم، وفوق استطاعتكم يستولي عليكم جميعًا؛ ففعلوا ذلك، وأعطوه العهود المغلظة عليه، فقال يعقوب عليه السلام بعد ذلك: اعلموا يا أبنائي أن الله علىٰ ما نقول وكيل، وشهيد ومطلع، قد ارتضينا واكتفينا به فهو حسبنا ونعم الوكيل.

[٦٧] ثم قال لهم بعد ذلك ناصحًا ومشفقًا: ياأبنائي إذا وصلتم إلىٰ مصر؛ فخذوا بالأسباب ولا تدخلوا مجتمعين من مدخل واحد؛ فإن عددكم كبير ومنظركم جميل، فأخشىٰ عليكم العيْن، وهذا إنما هو مجرد سبب، وإلا فأنا لا أغني ولا أدفع عنكم من قضاء الله وقدره شيئًا، فالحكم والقضاء والقدر لله وحده لا شريك له في ذلك، فما قضاه وقدَّره لا بد أن يقع، وإني توكلت واعتمدت ووثقت وفوّضت أمري لله، عليه وحده يعتمد ويتوكل المؤمنون الصادقون.

[٦٨] ولما دخل أبناء يعقوب عليه السلام مصر دخلوا متفرقين حسب نصيحة والدهم الذي خاف عليهم العين بسبب كثرتهم، ومع أن العين حق فهي من قدر الله، ومع أن الأسباب وأخذ الحيطة من قدر الله فأمر الله نافذ، ولكن كانت هذه النصيحة شفقة منه علىٰ أبنائه أن تصيبهم العين، واعلموا أن يعقوب علىٰ علم واسع جليل لما علمناه عن طريق الوحي، وهذا ثناء من الله تعالىٰ علىٰ يعقوب عليه السلام؛ لمعرفته أن العين حق وأن الحيطة حسنة، ولكن أكثر الناس لا يعلمون عواقب الأمور وإنما يعلمها يعقوب وأمثاله ممن أعطاهم الله البصر والبصيرة.

[٦٩] ولمّا دخل إخوة يوسف عليه قام إلىٰ شقيقه واعتنقه وضمَّه بعد أن استفرد بأخيه بحيث لم يره أحد من أخوته، وقال له سرًّا: أنا أخوك يوسف، فلا تحزن لما ترىٰ من الخطة التي سوف أدبرها لاستبقائك عندي.

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ
ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟
وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ
وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ
لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ
﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ
مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن
وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ
وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ * قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ
فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ
وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا
فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾

[٧٠] فلمّا كَالَ يوسف عليه السلام لكل واحد منهم مكْياله، وأعطاه ميرته، ووضعه علىٰ بعيره، أمر مساعديه بدسِّ الصواع الذي يُكال به في رحل شقيقه، وهم لا يشعرون، فلما انطلقوا ذاهبين نادىٰ منادٍ: ياأهل هذه القافلة: إنكم لسارقون.

[٧١] ففزع إخوة يوسف وجاؤوا مقبلين علىٰ هذا المنادي قائلين: ماذا تفتقدون؟ ما الذي ضاع منكم؟!

[٧٢] قال المنادي ومن معه: يا أصحاب العير المحملة إننا نفقد صُواع الملك الذي يُكال به، والذي سيأتي به سنكافأه بحمل بعير من الطعام، وأنا أضمن وأتكفل بهذه المكافئة.

[٧٣] فقال إخوة يوسف حالفين بالله: لقد علمتم ما قَدِمْنا للسعي في الأرض بالفساد، وما كنّا سارقين، فهذه فعلةٌ قبيحةٌ نحن نترفع عنها.

[٧٤] فقال المنادي ومن معه من الباحثين عن المفقود: ما جزاؤكم إن كنتم كاذبين فيما تدَّعونه من البراءة من السرقة، وما جزاء وعقوبة من فعل ذلك منكم؟، وبماذا تحكمون علىٰ من يُسْتَخرج الصواع من رحله؟!.

[٧٥] فأجابوا قائلين: من وجدتموه في رحله فله الجزاء المعروف - وقد كان في دينهم أن من سرق وثبتت عليه التهمة يكون عبدًا لمن سرقه لمدة عام -، وقالو: وهذا جزاء كل ظالم يعتدي علىٰ مال غيره.

[٧٦] فبدأ المفتِّش بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه دفعًا للتهمة، ثم استخرج الصواع من وعاء أخيه، ثم أخبر سبحانه أنه يسَّر ليوسف عليه السلام هذه المكيدة بهذه الطريقة وعلمه إياها، ليستطيع أن يأخذ أخاه عنده، لأنه لم يكن هذا هو حكم السارق في شريعة ملك مصر، واعلموا أيها الناس أن الله جل في علاه يرفع من يشاء درجات عاليات بالعلم - كما رفع يوسف عليه السلام -، واعلموا أيضًا أن فوق كل صاحب علم من الناس من هو أعلم منه؛ حتىٰ ينتهي العلم إلىٰ عالم الغيب والشهادة جلَّ في عُلاه.

[٧٧] وهنا أُسقط في أيدي إخوة يوسف، فقالوا محاولين تبرئة أنفسهم: إن يسرق هذا الأخ فقد سبقه إلىٰ ذلك أخ شقيق له - يقصدون يوسف عليه السلام -، فهو الآن فعل مثل فعلته، فكتم يوسف عليه السلام هذا الافتراء والبهتان في نفسه، ولم يُظهِر لهم ذلك، ثم قال في نفسه: أنتم - بفعلتكم التي فعلتم - أشر ممن تتهمونه كذبًا وزورًا، والله أعلم بكم وببهتانكم وافترائكم.

[٧٨] فقالوا له علىٰ وجه الاسترحام والاستعطاف: ياأيها الملك، إن والد هذا الأخ شيخ كبير طاعن في السن يحبه حبًّا شديدًا ولا يطيق فراقه، ولا يصبر عليه، فخذ أحدنا بدلًا منه، وقد أحسنت إلينا إحسانًا عظيمًا، فاجعل موافقتك علىٰ طلبنا هذا من جملة إحسانك إلينا.

[٧٩] فأجابهم يوسف عليه السلام قائلًا: أعوذ بالله أن نأخذ أحدًا غير الذي وجدنا متاعنا عنده، فإنَّا إن فعلنا ذلك، فلن يكون هذا من باب الإحسان؛ بل سيكون هذا من الظلم ومجاوزة الحدّ، ووضْع العقوبة في غير موضعها.

[٨٠] فلما استنفد إخوة يوسف جميع الطرق لاستنقاذ أخيهم والرجوع به إلىٰ أبيهم ويئسوا من ذلك؛ اجتمعوا لوحدهم وأخذوا يتشاورون، فقال أكبرهم سنًّا: ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم العهود والمواثيق، وحلفنا له الأيمان المغلظة أن نرجع به؟!، وقد أخلفنا معه في المرة الأولىٰ من عدم حفظ يوسف وإرجاعه إليه، فأنا لا أستطيع أن أواجه أبي هذه المرة، فلن أتحرك من مكاني، ولن أترك هذه الأرض حتىٰ يسمح لي أبي بذلك أو يأتي الله بحكم من عنده، فأرجع بأخي أو لوحدي، والله خير الحاكمين، وأحسن الفاصلين.

[٨١] وقال لهم أخوهم الكبير موصيًا إياهم بم يلقون به أبيهم، فقال لهم: أخبروه بما حصل وقولوا له: يا أبانا إن ابنك قد سرق صواع الملك، فأخذه الملك بسرقته، وقد حاولنا مع الملك بجميع الطرق أن نسترده ونرجعه معنا فرفض وأبىٰ، ولم نشهد بشيء لم نعلمه؛ بل رأينا بأعيننا الصواع يُستخرج من رحل ابنك، وما كنّا بعالمين للغيب أنه سيسرق فحرصنا علىٰ أخذه معنا هذه المرة أشدَّ الحرص، فلو علمنا ذلك ما أخذناه معنا.

[٨٢] ثم قال إخوة يوسف لأبيهم: وإن لم تصدقنا أو شككت في قولنا فاسأل أهل مصر التي كنا فيها وجئنا منها، واسأل القافلة التي رجعنا معها، والله إنا لصادقون في قولنا، لم نكذب فيه ولم نغيِّر شيئًا، وهذه هي الحقيقة.

[٨٣] فقال لهم أبوهم: متهمًا إياهم بتدبير مكيدة له كما فعلوا بيوسف من قبل: بل زينت لكم أنفسكم أمرًا منكرًا لتُبعِدوه عني، فسأصبر صبرًا جميلًا لا تسخط فيه ولا شكوىٰ ولا جزع، عسىٰ الله أن يلطف بحالي، وأن يرد عليَّ جميع أبنائي -يوسف وأخاه، والذي تخلف في مصر-، إن الله هو العليم بكل شيء وهو عليم بحالي وما أعاني من فقد أولادي، وهو الحكيم الذي له الحكمة البالغة في كل ما قضىٰ وقدّر.

[٨٤] ثم انصرف يعقوب عليه السلام عن بنيه، وبِهِ من الأسىٰ والأسف ما لا يعلمه إلا الله، وقد هيَّجت هذه الحادثة ذكر يوسف في قلبه، وشوقه إليه الذي لم يفارقه لحظة، فقال بلوعة وأسىٰ: يا أسفىٰ علىٰ يوسف، ثم بكىٰ بكاءً مرًّا حتىٰ ابيضَّت عيناه وذهب نورها من كثرة ذلك البكاء واستمراره، وهو مع امتلاء قلبه بالحزن والهم والشوق يكظم ذلك ولا يبديه ويظهره للناس.

[٨٥] فقال له أبناؤه متعجبين من حاله، ومشفقين عليه أن يشق البكاء كبده: يا أبانا إنك لا تزال تذكر يوسف وتتذكره في كل لحظة حتىٰ أفسد ذلك عليك معاشك، هل تريد أن تستمرَّ علىٰ ذلك حتىٰ تموت كمدًا وحزنًا، فخفف عنك وهوِّن عليك.

[٨٦] فردَّ عليهم قائلًا: أنا لا أشكو لكم شيئًا من حالي، وإنما أشكو حزني وهمِّي إلىٰ الله وحده، وأنا علىٰ علم من الله لا تعلمونه ولا تعلمون حكمته.

يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ
مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ
ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ
مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا
ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ
٨٨ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ
جَٰهِلُونَ ٨٩ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ
وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ
ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ
ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ
عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ
٩٢ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ
بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٣ وَلَمَّا فَصَلَتِ
ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن
تُفَنِّدُونِ ٩٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ٩٥

[٨٧] ثم قال لهم: يا بنيَّ اذهبوا فتلمَّسوا أخبار يوسف وأخيه وتحسسوهما، وفتِّشوا عنهما، وابذلوا جهدكم في ذلك، ولا تيأسوا وتقطعوا رجاءكم من رحمة الله وفضله وكرمه، وقُرْب فرجه وتنفيسه، ولا تيأسوا من الحصول عليهما، واعلموا أنه لا ييأس ولا يقطع رجاءه من روْح الله وفرجه ورحمته إلا الكافرون الجاحدون، فلا تتشبهوا بهم.

[٨٨] فامتثل إخوة يوسف ما أمرهم أبوهم، وعادوا راجعين لمصر يحاولون جهدهم إخراج أخيهم، والعودة به لأبيهم، فلمّا دخلوا علىٰ يوسف عليه السلام قالوا له مستعطفين مسترحمين: ياأيها العزيز قد انتشرت المجاعة بسبب الجدب والقحط، ووصل بنا وبأهلنا الحال إلىٰ الاضطرار، وقد جئناك ببضاعة رديئة وثمن قليل، فاغفر لنا ذلك، واقبله منّا، فوفِّ لنا كيلنا، وتمِّمْه، وتصدَّق علينا بزيادة من عندك، فإنَّ الله يجازي المتصدقين علىٰ المحتاجين أجرًا عظيمًا.

[٨٩] حينها: رقَّ يوسف عليه السلام لأخوته، وتملكته الرحمة والشفقة بهم مما أصابهم، فقرر أن يكشف لهم عن نفسه، ويعرفهم بحقيقة الأمر، فقال لهم معاتبًا: هل تذكرون ما فعلتم بيوسف وأخيه؟! وذلك حين جهلكم، وطيْشكم، وعدم معرفتكم بعاقبة ذلك!! وهو بهذا يعلمهم بجرمهم ويعتذر عنهم ليخفف هول المفاجأة.

[٩٠] فقالوا في دهشة واستغراب: أإنك لأنت يوسف؟ هل أنت يوسف؟ فأجابهم: نعم، أنا يوسف، وهذا أخي، قد أكرمنا الله، ومنَّ علينا، إنه من يجعل بينه وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ثم يصبر علىٰ ما حل به من المصائب وعلىٰ أقدار الله؛ فإنه من المحسنين الذين لهم أجر ثابت عند الله لا يضيع، ولا يذهب سُدىً؛ فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

[٩١] فقالوا: والله لقد فضَّلك الله واختارك علينا بما حباك به من الصبر وحسن الأخلاق وجميل الصفات، وبالعلم والعمل والفضل، وإنا نقر معترفين أنَّا كنَّا مخطئين لِمَا فعلناه بك عمدًا، وبما أوصلناه لك ولأخيك من أذىً.

[٩٢] قال يوسف لأخوته: لا معاتبة ولا لوم عليكم اليوم، ثم دعا لهم بالمغفرة، يعني: صفح عنهم وزادهم أن طلب من الله أن يغفر لهم، فإنه جل وعلا أرحم الراحمين بمن تاب وأناب من عباده.

[٩٣] ثم قال لهم يوسف عليه السلام -وقد أخبروه بذهاب بصر أبيه من حزنه عليه-: خذوا قميصي هذا وألقوه علىٰ وجه أبي؛ يرجعْ إليه بصره مرة أخرىٰ، وأقدموا عليَّ جميعًا بأولادكم وعشيرتكم وتوابعكم.

[٩٤] ولمَّا تحركت القافلة من مصر، وخرجت منها، قال يعقوب عليه السلام لمن حضره من أهله: إني الآن أجد ريح ابني يوسف؛ ولولا أنكم سوف تنسبون إليَّ الجهل وذهاب العقل، وتسخرون مني وتقولون: إن هذا الكلام صدر من غير شعور، لقلت لكم: والله إني أشعر بأن لقائي بيوسف قد اقترب كثيرًا وحان زمانه.

[٩٥] فأجابوه علىٰ سبيل التسلية بما ظنَّ فيهم، فقالوا: والله إنك لا تزال علىٰ طريقتك القديمة من إفراط حبك ليوسف، وتوهم حياته، وأنك ستراه، وما هذا الذي أنت فيه ياأبانا إلا ضلال بين وخطأ واضح.

فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ
أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟
يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ
أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا
دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ
إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟
لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا
رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم
مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ
رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ
قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ
فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ
تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ
ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ
وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

[٩٦] فلمّا وصلوا ومعهم البشير الذي يحمل القميص؛ ألقىٰ القميص علىٰ وجه يعقوب عليه السلام كما أمره يوسف، فما لبث أن رجع إليه بصره، فقال - لمن حضره من أهله - فرحًا مستبشرًا: ألم أقل لكم: أني علىٰ علم من الله لا تعلمونه أنتم؟!، حيث كنت أرجو وأترقب لقاء يوسف، وزوال الهم والحزن لثقتي بالله.

[٩٧] حينها قال إخوة يوسف معترفين مقرِّين: ياأبانا اطلب لنا المغفرة من الله لذنوبنا علىٰ ما وقع منّا من خطأ وزلل، وتقصير في حقك، وحق يوسف وأخيه.

[٩٨] فأجابهم النبي الكريم بوعده إياهم أن يفعل ذلك، وقال: سوف أطلب لكم المغفرة من الله، وأرجو أن يغفر لكم وأن يرحمكم، إنه هو الغفور الرحيم.

وفي قوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾، قيل: كان يقصد أن يدعو لهم آخر الليل.

[٩٩] وتجهَّز يعقوب مع زوجه وبنيه، وانطلقوا إلىٰ مصر للقاء يوسف، وقد حان اللقاء بعد طول فراق، وبلغ الشوق مبلغه، واقترب العناق، فلمّا وصلوا إليه ودخلوا عليه قام يوسف إلىٰ أبويه وضمهما إليه والتزمهما وعظَّمهما وبالغ في التعبير عن حبه وشوقه، - فيالله ما أعظم اللقاء، ويالله ما أجمل هذه اللحظات - ثم قال للجميع: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين، من الخوف والجوع والقحط والجدب، وآمنين من جميع المخاوف والمكاره.

[١٠٠] رحب يوسف بوالديه وأجلسهما بجانبه علىٰ سرير الملك الذي يجلس عليه تكريمًا لهما؛ ثم سجدا هما وأبناؤهما ليوسف، وكانت هذه تحية واعترافًا بفضله ونعمة الله عليه بالنبوة، وكان ذلك جائزًا في شرعة الأولين وليست عبادة للمسجود له؛ فيعقوب نبي وأبناؤه مثله مخلصون لعبادة الله وحده لا شريك له، أما في شريعتنا فقد حرِّم السجود لغير الله، ثم قال يوسف لأبيه متحدثًا بنعمة الله عليه: يا أبت هذا هو تفسير رؤياي التي قصصتها عليك قديمًا في صغري، لقد جعلها ربي حقًّا، وهذا الذي رأيت هو تأويلها بعد أن مضىٰ عليها زمنٌ طويلٌ، قال بعضهم: كان بين الرؤيا وبين ظهور تأويلها أربعون سنة، ثم قال يوسف: وقد تفضَّل عليَّ عندما أخرجني من السجن، ثم تفضل علي مرة ثانية عندما جمعني بكم في مصر بعد أن كنتم مقيمين في البادية، من بعد أن أفسد الشيطان بيني وبين إخوتي، ولا شك أن إخراجه من البئر أكثر تفضلًا من إخراجه من السجن، ولكن لم يُرِدْ أن يذكِّرهم بجرمهم حتىٰ لا يجرح شعورهم وخاصَّة بعد عفوه عنهم، ثم قال يوسف: إن ربي لطيف التدبير لما يشاء تدبيره من أمور عباده، إنه هو العليم بأحوال خلقه، الحكيم في جميع أقواله وأفعاله.

[١٠١] ثم ختم يوسف بدعاء الله وثنائه عليه فقال: ربِّ قد أعطيتني شيئًا عظيمًا من ملك مصر، وهو ما ولَّاه عليه من تصريف خزائن الأرض، قال بعض المفسرين: إنه فعلًا صار الحاكم المالك لمصر، وقال آخرون: إنه صار سيد نفسه بعد أن كان رقيقًا وسيدًا لمرؤوسيه الذين يساعدونه وينفذون تعليماته، وأيضًا علَّمتني يارب شيئًا كثيرًا من تفسير الرؤىٰ، فياخالق السماوات والأرض ومبدعهما، أنت ناصري ومعيني ومتولي جميع شأني في الدنيا والآخرة، توفني إليك مسلمًا، وألحقني بعبادك الصالحين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

[١٠٢] واعلم يانبي الله أن ذلك الخبر العجيب هو من أخبار الغيب التي لا يعلمها إلا الله، وهو الذي أوحاه إليك، ولولا إخبارنا إياك بهذا الخبر؛ لكان من المستحيل أن تعرفه أو تطَّلع عليه، فإنك ما كنت حاضرًا مع إخوة يوسف حينما عقدوا عزمهم وأكدوا أمرهم علىٰ المكر بيوسف بإبعاده عن أبيه، ولا سبيل لمعرفة هذه القصة بتفاصيلها إلا عن طريق الوحي، وهذا دليل علىٰ أنك رسول من عند الله، يوحىٰ إليك.

[١٠٣] ثم قال جل في علاه لنبيه محمدًا عليه الصلاة والسلام تسلية له: وما أكثر الناس يانبي الله ولو حرصت علىٰ هدايتهم بداخلين في الإيمان، ولا بمصدِّقين، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات.

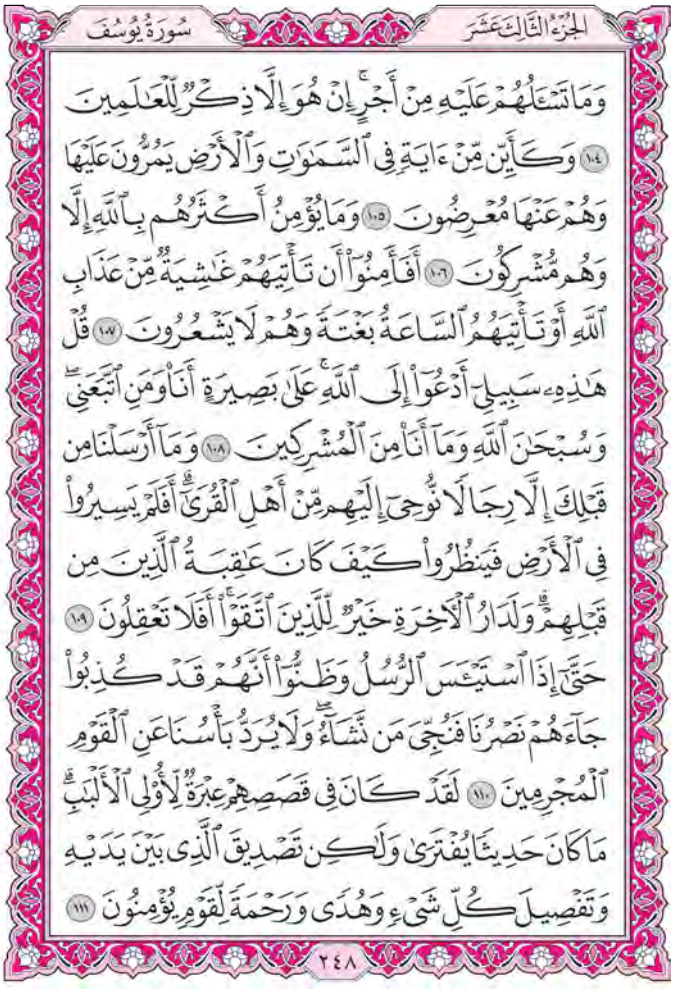

[١٠٤] وما تطلب يانبي الله ممن تدعوهم إلىٰ الإسلام والإيمان مقابل ذلك مالًا يدفعونه إليك، ولا غيره، فالقرآن وما أوحينا إليك ذكرٌ وهدايةٌ وعظةٌ للناس أجمعين.

[١٠٥] وكم من آية كونية منتشرة في السماوات والأرض تدلُّ علىٰ وحدانية الله جلَّ في علاه، يمر عليها ويشاهدها هؤلاء المشركون، وهم عنها معرضون لا يلتفتون إليها، ولا يتأملونها، ولا يتفكرون فيها.

[١٠٦] وما يؤمن ولا يوقن ويقرُّ ويصدِّق أغلب من يؤمن بهذه الآيات الكونية، وأن الله هو الخالق الرازق المدبِّر؛ إلا وهم يشركون في توحيد الألوهية، فيتخذون مع الله آلهة أخرىٰ، ويشركون معه غيره في العبادة.

[١٠٧] أفأمن هؤلاء المشركون الذين فعلوا هذا الفعل الشنيع من الإعراض عن آيات الله، واتخاذ شركاء معه، أفأمنوا من عذاب الله؟! هل هم في مأمن من أن يعمهم الله بعذاب ويغمرهم بعقاب يستأصلهم، ويمحوهم! أم هم في مأمن من أن تأتيهم الساعة ويبغتهم يوم القيامة فجأة، فتكون مصيبتهم أعظم، وعذابهم أشدَّ في الآخرة!!

[١٠٨] وقل يانبي الله: هذه طريقتي في التوحيد ومنهجي في الدعوة إليه، وأنا علىٰ بصيرة وبيِّنة وعلم يقينيٍّ من أمري، أنا ومن اتبعني أيضًا يسير علىٰ نفس طريقتي، وأنزِّه الله جل في علاه عمَّا يقوله ويفعله هؤلاء المشركون من عبادة غيره معه، وأعلن براءتي من المشركين، فلست منهم، ولا هم منّي، ولا أرتضي ما هم عليه.

[١٠٩] وما أرسلنا قبلك يانبي الله إلا رجالًا من البشر من أهل القرىٰ والمدائن، اخترناهم وأوحينا إليهم، فَلِمَ يكذّبك قومك ولا يصدقونك؟! أفلم يسيروا ويضربوا ويسافروا في الأرض فينظروا كيف كانت نهايات الأقوام السابقة الذين كذّبوا رسلهم؟!! وكيف أن الله أهلكهم وجعلهم عبرةً للمعتبرين؟!! واعلموا أن الدار الآخرة أفضل، وثوابها أعظم، وذلك يكون للذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية بإخلاص التوحيد له، ونفي الشريك عنه، وبفعل أوامره واجتناب نواهيه، أفلا تعقلون وتتفكرون في ذلك؟! أليس لكم عقول تدلكم علىٰ أن ما عند الله خير وأبقىٰ وأدوم؟!!

[١١٠] ثم قال سبحانه وتعالىٰ لنبيه ﷺ تسلية له: حتىٰ إذا استبطأت الرسل من إيمان قومهم وأيقنوا أنهم قد كذبوهم، وأنه لا أمل في إسلامهم وإيمانهم، جاءهم نصرنا الذي وعدناهم به عند شدة الكرب؛ وهو العذاب الأليم في نار جهنم، فنجا من نشاء إنجاءه من الرسل وأتباعهم المؤمنين، ولا يُرَدُّ عذابنا عمَّن أجرم وتجرَّأ علىٰ الله. وفي هذا تسلية للنبي ﷺ.

قال الشيخ البسام: قوله: ﴿وَظَنُّوٓا۟﴾ في هذه الآية بمعنىٰ: تيقنوا، يعني: تيقنوا وتأكدوا أن أممهم كذَّبتهم وأصرت علىٰ الكفر بالله.

أما الدكتور السامرائي فقد قال: إنهم - أي: أقوامهم - ظنّوا أن الوحي كَذَّبهم، فالأنبياء معصومون مما هو أقل من هذا.

[١١١] لقد كان في قَصص الأنبياء مع أقوامهم، وفي قصة يوسف مع إخوته عبرة وموعظة وذكرىٰ ينتفع بها أصحاب العقول الراجحة، والفطر السليمة؛ حيث مرت قصته بفتن وابتلاءات ودروس كثيرة، بدأت بعداوة إخوانه وحقدهم عليه، ثم رميه في البئر، ثم بيعه عبدًا رقيقًا، ثم جاءت الفتنه العظيمة حيث أولعت به امرأة العزيز وبذلت جهدها لإيقاعه في شراكها، ثم افتتان النسوة اللاتي قطعن أيديهن به؛ فسبحان الذي أنجاه وحكي لنا قصته التي ما قرأها محزون أو مكلوم إلا صغرت مصيبته وهانت عليه فارتاح وعرف أنه في عافية.

ثم قال جل وعلا: واعلم يانبي الله أن هذا القرآن ما كان حديثًا عاديًّا من الممكن أن يُفْترىٰ وأن يُختلَق كما يزعم المشركون!، ولكنه مصدِّقٌ لما بين يديه من الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل والزبور، يوافقها ولا يخالفها في توحيد الله، ويشهد لها بالصحة، وأنها منزَّلة من عند الله، وفي هذا القرآن تبيان وتفصيل لكل شيء مما يحتاج إليه العباد في العقائد والأحكام والأخلاق، وجميع ما يُصلح دينهم ودنياهم، ثم هو هدىٰ لكل من طلب الهداية وبحث عنها في الدنيا وأراد أن ينجو من الضلال، وهو رحمة في الآخرة لمن آمن به، وعمل بما فيه، واتّبع أوامره، واجتنب نواهيه.